آراء وتحقيقات

الخير والسعادة

المعرف عليهما عند أكثر فرق الفلاسفة

للأستاذ عباس طه

منذ قرابة عامين عرضنا في بعض المجلات العلمية للبحث عن الفرق بين الخير والسعادة لماما ، ثم لمدى الخلاف بين المتقدمين من الفلاسفة وبين المتأخرين منهم فى ماهية السعادة وهل هى سعادة بالاضافة إلى غيرها أم هى سعادة مطلقة بغض النظر عما عداها من الاعتبارات ، وهل هى من ملابسات النفس الناطقة وحدها ، أو أن البدن أيضا من مقوماتها .

لكن البحث لم يتسق للكشف عن مبلغ آراء فرق الفلاسفة فى السعادة والخير يومئذ فى تلك المجلة . من أجل ذلك نحب أن نعرض لقراء الرسالة — بقدر — فى هذا البحث الراهن السعادة فى رأى فيثاغورث وأفلاطون وبقراط ، وهؤلاء من متقدمي الفلاسفة ، ثم نعرض بعد ذلك لرأى ارسطاليس ، ثم نقارب بين رأى فيثاغورس ومتابعيه ، وبين جمهرة من المشائين حتى يتسق البحث على وتيرة واحدة ، ويجرى على سنن مستساغ.

فى الاتجاهات التى اتجه إليها فيثاغورث وأفلاطون وبقراط ومن إليهم تلقاء النفس الناطقة أن الفضائل الأربع التى هي قوام السعادة وعتادها حاصلة كلها فى النفس وحدها فليس لها مدد من الخارج ولا قوة تصدر عنها سوى النفس الناطقة ؛ ولذلك حينما عرضوا لتقسيم قوى النفس فى كتبهم اعتبروا كل هذه القوى منحصرة فى الفضائل الأربع وهى : « الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة» على ما سيجىء الكلام عنه في بحوثنا المتلاحقة المتعلقة بالنفس الناطقة، ثم رتبوا على ذلك الاتجاه أن تلك الفضائل الأربع وحدها كافية لتكون قواما للسعادة فى فصولها المختلفة ، فلا يحتاج معها إلى غيرها من فضائل البدن ومميزاته ضرورة أن ذا النفس الناطقة إذا حصل تلك الفضائل مجتمعة فلا ينقض من سعادته أن يكون سقيما أو فاقداً لبعض أعضائه أو مبتلى ببعض صنوف العلل والأدواء إلا إذا تأثرت تلك النفس بأوصاب البدن وأسقامه فيما يصدر عنها من أفعال كفساد العقل واضطراب التفكير وضعف الروية والخلط بين الآراء ، فان ارتفعت كل هذه الأعراض على إصابة البدن بعلله وأوصابه فليس يضير النفس الناطقة فى شىء أن يعرض لها الفقر والخمول وسقوط الحال وخشونة العيش مثلا وكل ما هو خارج عنها فليس ما كان خارجا عن النفس الناطقة بقادح فى سعادتها . وبدهى أن فيثاغورث ومن لف لفه يذهب إلى أن السعادة لا تعدو النفس الناطقة فلا تتناول الأبدان ومميزاتها ، ويرتبون على ذلك الاتجاه أن السعادة والخير فى مختلف مناحيهما ليس لهما إلا مصدر واحد وهو قوى النفس الناطقة وبالتالى الفضائل الأربع، وليس للبدن على هذا الاعتبار إلا مظهر آليته ، فالنفس مدبرة والبدن لها آلة .

أما جمهرة من الرواقيين فتذهب إلى أن السعادة والخير يصدران عن النفس والبدن معا . فاذا صدر الخير عن النفس دون تقدير لكفة البدن فانما يصدر ناقصا بالقياس إلى ما تتعاون النفس والبدن مجتمعين فى صونه وإبرازه .

يأتى بعد ذلك أرسطاليس فينحو نحواً آخر وهو أن السعادة والخير متخالفان، ثم إن السعادة بعد ذلك مقولة بالتشكيك فهى معروضة للمقولات العشر

ومعلوم أن المحققين من الفلاسفة يحقرون شأن البخت والاتفاق وكل ما هو منقطع الصلة بترتيب الفكر وأعمال الروية ، ولا يؤهلون أصحاب هذه الاتفاقات وحملة تلك المصادفات لاسم السعادة . فالسعادة فى أوضاعهم أمر قار غير زائل ، بل هم فوق ذلك يعتبرون كل مايصل الانسان من غير طريق التدبير والروية ومن غير أن يجرى على سنن له مقدماته ونتائجه ضرباً من ضروب البخت فهو قابل عندهم للبقاء والزوال والزيادة والنقص والتعديل والتجريح والصحة والفساد والرفعة والخفض وكل الأشياء ونقائضها؛ وتابعهم فى ذلك كثير من متأخرى الفلاسفة أخذا بنظرية صادقة عندهم وهى : من قدمه الاتفاق فقد أخره الاستحقاق . وهنا وقع خلاف ذو شأن بين قدماء الفلاسفة ومتأخريهم فيذهب فيثاغورث وأفلاطون وبقراط إلى أن السعادة العظمى لا تتحقق للانسان إلا بعد أن تخلع البدن وما يلابسه من غاشيات الطبيعة ، تطبيقاً لمذهبهم القائل بأن السعادة لا تحصل إلا فى قوى النفس الناطقة . من أجل ذلك أطلقوا على الانسان

أنه جوهر النفس الناطقة دون البدن، حكموا أن البدن ما دام سياجاً لها وقفصاً لإيوائها ، وما دام يخلع عليها غاشيات الطبيعة وأكدارها ولوثاتها وعلائقها فليست تلك النفس بسعيدة السعادة المطلقة الموموقة ؛ ومبعث ذلك الرأى عندهم أن النفس الناطقة لا تستوحى الكمال الذاتى والعقل النورانى ما دامت متصلة بتلك الهيولى التى تحجب عنها العلوم والمعارف الكلية ، إلا إذا فارقت ظلمة الهيولى ولوثة تلك الكدورة، وحينئذ تفارق الجهالات المتنوعة فتصفو وتخلص من ربقة البدن فتكتب لها الاضاءة ويواجهها النور الالهى . ويترتب على رأى هؤلاء بادى ذى بدء أن الانسان لا يظفر بالفوز الأكبر والسعادة العليا إلا فى حياة الجزاء بعد موته

لكن تأتى بعد ذلك جماعة أخرى من الفلاسفة المتأخرين وأرستطاليس منهم فى الطليعة ، فتذهب إلى أن من الشناعة والعبث وتجاهل الواقع أن ينعت الانسان الذى يعمل الأعمال الصالحة ويعتنق الآراء الصحيحة ، ويجد فى تحصيل الفضائل لنفسه أولا ثم لأبناء جنسه ثانياً ، فينشئ صروحاً من الخير متنوعة، ويقيم أعماله وما يصدر عنه من الآثار على محبة القلوب وكسب ألسنة الناس فى سبيل إعلاء معالم الفضيلة والحق والنصفة وتحقيق معنى العدالة فى أنبل مثلها - بأنه شقى فى حياته الأولى وأنه لا يعتبر سعيداً إلا إذا فارقها وخرج من طبيعتها وملابساتها

فالسعادة فى رأى أرستطاليس ومتابعيه تتحقق فى الحياة الأولى تطبيقاً لنظرية اشتهرت بينهم ، وهى : أن الانسان عندهم مركب من بدن ونفس، ولذلك يحدون الانسان بالناطق المائت أو بالناطق الضاحك أو ما إلى ذلك ، وفرعوا على هذه النظرية أن السعادة تحدث للانسان إذا جد فى طلبها وسلك إليها الوسائل المؤدية إليها . غير أن أرستطاليس حين رأى أن السعادة قد أشكل فهمها على الناس واضطربت فيها آراء العلماء والفلاسفة ، عقد لها فى كتابه المسمى « بفضائل النفس » فصلا طويل الذيل ضافى التفاريع حافلا بالحجج والآراء ، فقال فى فاتحة هذا الفصل مع تصرف فى المبنى واحتفاظ بالمعنى : « من البين أن الفقير فى هذه الحياة يرى سعادته فى الغنى واليسار، وأن المريض يراها فى الصحة والسلامة، وأن الذليل يتمثلها فى الجاه والعزة والسلطان، وأن الخليع يلمسها فى التمكن من الشهوات المختلفة، وأن النبيل الفاضل الكريم ينشدها فى تعميم مناحى الخير وإفاضتها على مستحقيها ، والحد من طغيان ذلك الخير حتى لا يشمل غير مستحقيه » ويتحققها الفيلسوف المستقصى لحقائق الأشياء والمتتبع للابسات القواميس الكونية فى أنها إذ تكون مرتبة بحسب تقسيط العقل لها على معنى أن يلحظ فيها وقتها الذي يجب أن تقع فيه وكما يجب أن تكون وعند من يجدر فهى سعادات متنوعة، فما كان منها يراد لشىء يناسبه فذلك الشىء أجدر أن يطلق عليه اسم السعادة

ثم كشف بعد ذلك أرستطاليس عن رأيه فى بسط وإبانة ، فقال مع تصرف فى مبناه والاحتفاظ بمعناه : قلما يتاح للانسان أن يفعل الأفعال الشريفة المرضية دون مادة تقوم عليها كاتساع اليد وكثرة الأعوان وجودة البخت ، ويتضح ذلك جلياً فى صناعة الملك والرياسات المختلفة حيث لا يواتيهم توطيد لأركان هذه الزعامة إلا مقترناً بالشرائط المبنية على أن هناك نوعاً من الأعطية هى عطية الله تعالى جده ، فهى السعادة لأنها عطية منه عز اسمه وموهبة فى أشرف منازل الخير وأعلى مراتبه ، وتلك الموهبة خاصة من خواص الانسان الكامل فلا يشاركه فيها من ليست إنسانيته تامة كالصبيان وما يجرى مجراه

وتلك النظرية تقوم على نظرية أخرى عند أرستطاليس فهو يرى أن السعادة تعتبر كذلك بالاضافة إلى صاحبها فهى كمال له، فالسعادة على هذا الوضع خير ما ، وقد تكون سعادة الانسان غير سعادة الفرس وما إليه ، فسعادة كل شىء فى تمامه وكماله الذى يلائمه ، وهنا يفرق بين الخير والسعادة فيرى أن الخير من حيث أنه مقصود للناس جميعاً بالشوق إليه والعمل على تحصيله طبيعة تقصد ، وله مفهوم عام يدل عليه وهو الخير المطلق للناس من حيث أنهم كذلك . فالناس أجمعون عاصون فيه . لكن السعادة شىء آخر غير الخير عنده ، فهى خير ما للواحد من الناس، وهى بالاضافة ليست لها ذات معينة ، وهى تختلف بالاضافة إلى قاصديها اختلافاً يرجع إلى مؤهلاتهم وما ركب فيهم من فطر ومعدات، ومن أجل ذلك يكون الخير المطلق غير مختلف فيه. وقد يظن بالسعادة أن تقع لغير الناطقين، لكن ليس على نحو من أنحاء الناطقين فانها إذا وقعت فانما هى استعدادات فيها بقبول كمالاتها الملائمة لها من غير روية ولا تدبير ، وهى بمنزلة الشوق أو ما يجرى مجراه من الناطقين بالارادة

فما يقع للحيوانات فى مآكلها واستجمامها لا يمكن أن يسمى سعادة بل الوضع الصحيح له أن يسمى بختاً أو اتفاقاً ، وجلى أن العقل بفطرته قد جعل للسعى والحركة والارادة المكتسبة للانسان حداً تنتهي إليه ، فلذلك كان من المعقول أن يوجد خير مطلق

لا تأباه طبيعة هذا الوجود ولا يوجد بين الناس خلاف عليه ، فالعلم والصناعات والتدابير الاختيارية المجدية مثلا ، كلها يقصد بها خير ما لوجه الانسانية على الأقل ولا يرتاب أحد في أنها كذلك وأنها تثمر ثمرتها المرجوة لها ، فكل تصرف لا يقصد به خير ما كان عبثاً والعقل يحظره ويأباه

فيكون الخير المطلق مقصوداً إليه من الناس أجمعين، لكن بقي بعد ذلك أن يعلم ما هو ذلك الخير المطلق ، وما الغاية القصوى منه التي هي غاية أنواعه وأعلى مراتبه ؟ وذلك ما سنعالج تبيانه بعد . غير أن أرسطاليس قسم الخير تقسيما مفصلا ونوعه تنويعاً يكشف عنه كثيراً من الابهام الذي وقعت فيه جمهرة من متقدمي الفلاسفة فهي ترى أن الخير أنواع وفصول ، فمنه ما هو شريف ومنه ماهو ممدوح ومنه ماهو بالقوة، فالشريف منها ما كان شرفه مشتقاً من ذاته بحيث يخلع الشرف على من قام به وهو الحكمة والعقل ، والممدوح منها كالفضائل والأفعال الجميلة الارادية . أما ما كان بالقوة فكالتهيؤ والاستعداد لقبول الأشياء التي تكون نوعاً من هذه الأنواع ، ومن الخير ما هو غاية ، ومنه ما ليس كذلك، ومن الغاية ما هو تام، ومنها ما ليس كذلك ؛ فما هو تام كالسعادة، لأن من بلغ إليها كان في غناء عن أن يكون له وراءها مطمع في مزيد، وما هو غير تام كالصحة واليسار ، فان من واتته الصحة وواتاه اليسار لم يكن له عن طلب المزيد غناء ، بل ربما كانت الصحة أو اليسار من أقوى الحوافز له على طلب المزيد . أما الذي ليس بغاية منه فكالعلاج والتعلم والرياضة والعمارة والزراعة وما إلى ذلك . وجملة القول في الخير على ما حققه أرسطاليس وحكاه عنه فرفوريوس أن من أنواع الخير ما هو خير على الاطلاق وما هو خير عند الضرورة . ومنها ما هو خير ولكن ليس من طريق له مقدماته ووسائله كالاتفاقات التي تتفق لبعض المجدودين من الناس، وأيضاً منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجوه وفي جميع الأوقات. ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ولا من جميع الوجوه (وبالتالي) منها ماهو في الجوهر ومنها ماهو في الكم ، ومنها ما هو في الكيف، ومنها ماهو في الأين، ومنها ماهو في المضاف، ومنها ماهو في الخير . وعلى الجملة فالخير يعرض للمقولات العشر التي يعبر عنها الفلاسفة الأقدمون بأنها الأجناس العالية التي ليس فوقها جنس بل هي أعلى الأجناس جميعا فهي تحمل عليه حملا اصطلاحيا إخباريا. وقد أفاض ارسطاليس إفاضة مبسوطة في تبيان هذه الأجناس العالية ، وعروض الخير لها دلالة منه على أن مناحي الخير غير محدودة ، وأن نعمة الله التي أسبغها على عباده أوسع من أن تضيق بها تلك الرقعة السوداء بل إن آثار الله وآلاءه مبثوثة في كل جزء من أجزاء الكائنات ، حتى يبقى البرهان القاطع قائما على شيوع الآيات الباهرة في سائر مناحي تلك المجموعة الشمسية

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه الواحد

وقد سلك ارسطاليس في ذلك مسلكا يخالف مسلك المتقدمين من الفلاسفة كأفلاطون وبقراط ومن إليهما — فالمفهوم من تفاصيل مذهبه في النفس الناطقة وفي الخير والسعادة التي تنعم بها قوى النفس جلي ؛ بل إن الخير شيء غير السعادة وأنه شائع بأجزائه في كل مناحي الوجود حتى سرى الخير إلى سائر المقولات سريانه إليها دليلا على ذيوعه وانتفاع الناس به . فالخير في الجوهر وهو ما ليس بعرض يمثل له ارسطاليس بالحق تعالى جده، فهو الخير الأول على حد تعبيره ، فان جميع الأشياء تتحرق بالشوق إليه ولأنه يفيض السرمدية والبقاء على الخير الذي كتب له الخلود وعلى الآلاء اللانهائية ، وعلى كل مالا يطرأ عليه الفناء من أجزاء العالم الثاني الذي يعبر عنه المتقدمون من المتكلمين بعالم الجزاء . وفي الكم يمثل له بالعدد والمقدار المعتدلين ، ويمثل للكيف باللذائذ وألوان المتاع ، ويمثل لمقولة الاضافة بالصداقات والرياسات التي تنبعث عنها صلاحية تنطوي على خير الانسانية في أكمل حدودها ، ويمثل لمقولة الأين بالمكان المعتدل في ابعاده وأجوائه ومحيطاته وبالزمان الأنيق البهيج المتفتح الأكمام عن المرح والسرور . ويمثل لمقولة الوضع بالقعود والاضطجاع وسائر المشاهدات المؤثرة، ويمثل للفعل برواج الأمر ونفاذ الكلمة وسعة السلطان . وعلى الجملة فأنواع الخير عنده منها ما هو من قبيل المحسات ومنها ماهو من قبيل المعقولات. ولعل الأستاذ أحمد أمين، وقد أذاع على متن الأثير محاضرتين في السعادة والشقاء ، يعود فيصحح بعض نظرياته التي طالع بها سامعيه . ولعل الأستاذ الشيخ أمين الخولي، وقد أذاع هو الآخر على متن الهواء محاضرتين أو ثلاثا لا أدري في الحياة المثالية والحياة البدائية وما يتصل بهما من قوى النفس الناطقة ، يعود هو الآخر فيصحح بعض نظرياته ليرضي الحق وهيبة العلم في صميمه من جهة، ثم ليرضي في الأقل سامعيه من جهة أخرى ، وموعدنا بالكشف عن ذلك كله سوانح مقبلة

عباس طه